هذا الكتاب

ظمـئ الشَّـرقُ فيـا شـامُ اسـكُبي ... واملأي الكأسَ لهُ حتـى الجَمَـام
أهلُـك التّـاريخُ مـن فَضْلَتهـم ... ذكرُهـم في عُـروة الدَّهـر وسَـام
أمويّـون فـإن ضقـتِ بهـم ... ألحقـوا الدُّنيـا ببُسـتان هشـام

هـذي هـي دمشـق . . دمشـق التـي كـانت يومـاً عاصمـة للدولـة العربيـة الإسـلامية الجبّـارة ، ضمّـت إليهـا أقطـار العـالم ، فـانضوت شـعوبه تحـت لوائهـا الخفّاق ؛ وبلغت حدودها في مطلـع القـرن الثـاني الهجـري ، مـن جبـال القفقـاس شمالاً إلى الصّحراء الأفريقية الكبرى جنوباً ، ومن سور الصين العظيم شـرقاً إلـى مياه الأطلسي غرباً .

دمشقُ ، موئل العروبة والمسيحيّة والإسـلام ، دمشـقُ التـي صنعـت للعـرب مجدهم ، وكتبتْ بحروف مـن نـور بـاكورة تـاريخهم . دمشـقُ التـي روّى ترابهـا شُهداء الفتح في اليرموك ووادي الصُّفَّر ، دمشقُ التي تكسّرت أمـام أعتابهـا أحـلام الغزاة وآمالهم ، دمشقُ التي انطلـق منهـا الجيـش المظفّـر الـذي قـاده بطـل الأبطـال وسيّد الرّجال النّاصر صلاح الديـن ، فسـحق الصليبيـين في حطّـين وحـرّر القـدس الشريف ، بعد مئة عام من رجس الاحتلال .

هي دمشقُ التي تتوضّأ بالعروبة خمس مرّات في كل يوم ، دمشقُ التي رامها الملوك ليُخضعوها فـأخضعتهم ، وقصدهـا الجبـابرة فـأعجزتهم ، ثـم لـم يهنهـا أو ينتقص من علياء شرفها أن تمنح روحها وأسرارها لمحبّيها وعاشقيها .

أنا من عُشّاق دمشق . .

وهذا هو كتابي الثامن عنها . وقعتُ في هواها عام 1979 ، بعد كتاب قرأتُه عنها ، وكُتُب قرأتُها بين حاراتها ووجوه أطفالها ؛ وما عتّمتُ في عام 1981 أن ألّفتُ باكورة إنتاجي العلمي ، ثم في العام القابل نشرتُه ، وكان بالطبع عنها .

ومنذُ ذلك الحين ، ما ارعويتُ ولا اكتفيتُ ، ولا أنا اليوم عن هواها بقانع أو مرتض . . سأبقى عاشقاً لدمشق ، ولن أكفّ عن الكتابة عنها حتى تجفّ من الكتابة يميني ومن الخفقان مرّة قلبي .

* * * * *

غير أن في كتابي هذا اليوم ، اختلافاً كبيراً عن الكتب التي سبقت لي عن دمشق . كنتُ اعتدتُ التركيز على أسلوب الدّراسات الأكاديمية البحتة ، مشفوعة بالتحقيق والتدقيق والترجمة ، وعمل الخرائط والصور التوضيحية . ولم يكن في ذلك أي شَطط أو إفراط بطبيعة الحال ، إنما تبقى تلك الكتب برأيي منوطة بفئة معيّنة من الدّارسين والباحثين ، يجدون فيها الفائدة قبل المتعة .

أما اليوم ، فغايتي أن أهدي لعشاق دمشق كتاباً للقراءة ، لمتعة المطالعة والعودة على سطور الحنين إلى ماضي دمشق ونكهة ماضي دمشق . تمنّيتُ يوماً لو أؤلّف كتاباً في الأدب الشعبي الدّمشقي ، يقرأه الكبير والصغير ، الباحث والهاوي ، منه تفوح روائح الياسمين والكبّاد وعبير تُراب بساتين الشام بعد اغتسالها بالمطرة الأولى في تشرين . تمنّيتُ أن يُقال يوماً : لهذا الفتى يدٌ في التأريخ للحبيبة دمشق ، وإسهامٌ في حفظ تراثها الأدبي الشعبي من الضياع .

صحيحٌ أنني جئتُ متأخراً ، ولكن عُذري أن هذا ما كان باختياري ، وما لا يُدركُ كُلُّه لا يُتركُ جُلُّه . ولأن الميسور لا يُترك بالمعسور ، فلا حُجّة لي إن لم أبذل غاية الطاقة ، وأجتهد في المشاركة بواجبي تجاه حبيبتي الغالية .

كنتُ خلال الـ 23 سنة التي برّح فيها بقلبي هوى دمشق ، قد نخلتُ مكتبات الشّرق والغرب ، وخزائن البيوتات الدمشقية ، عن كل ما له صلة بتاريخ دمشق وتراثها الحضاري . فكان أن اجتمعت لي ثروة طائلة من المصادر المتنوّعة عن هذه المدينة ، مما لم تجمعه مكتبة أو جامعة في العالم ، بالغةً ما بلغت وكائنةً ما كانت .

وكنتُ أرى من بين هذه المصادر والوثائق ، نصوصاً تصلح لتُجمع في كتاب عن أدب دمشق الشعبي ، فرحتُ ألتقفها بعناية ، وأضمُّ واحدها إلى صنوه ، فما عتّمت أن صارت بين يدي اليوم تكفي لتأليف ثلاثة مجلدات وافية .

فها أنا ذا الآن ، بعد طول لأي وبعد فرط اجتهاد ، أطلع بكتاب طريف ممتع ، لا أخاله إلا يعجب ويسرّ كل من تاقت نفسه إلى استطلاع نكهة حياة أهلنا وأجدادنا بدمشق ، في العصور الخوالي قبل قرون مضت .

* * * * *

اجتهدتُ في هذا الكتاب أن أقدّم النوادر من النصوص حول المذكرات المدوّنة ، والمرويّات الشفهية ، ونوادر الأخبار التاريخية حول دمشق . وكان من شرطي أنني لن أعتمد أي نص ، ما لم يكن يرجع إلى الوراء قرناً كاملاً ، أو بعض قرن ، إلى الوراء . فالأصيل يسمو ويتفوّق على كل ما هو مفتعلٌ أو مختلق ، وأنا في ذلك لم أخرج في منهجي عن أبحاثي الأكاديمية السابقة ، إنما كان مجمل الخلاف في نوعية الموادّ المقدّمة ، لا في أسلوب بحثها .

وإنني لأؤكد ، أنني لم أدوّن في كتابي هذا أيّة معلومة ، ما لم أكن نقلتُها عن مصدرها الموثّق المخطوط مباشرة ، أو سمعتُها من أصحابها أو ممن عاصروها ورأوها رأي العين ، فكانت مرتبتي كناقل تأتي تلو الشاهد الناظر .

* * * * *

استفتحتُ كتابي بنصوص طريفة ونادرة ، من كتاب أعتبره واحداً من ألطف وأطرف مصادر تراثنا العربي في القرون الوسطى ، هو كتاب «المختار في كشف الأسرار» لعبد الرحيم الجوبري . ثم نشرتُ نصاً بديعاً ممتعاً يفور بالحياة عن دمشق في أواخر عهد المماليك ، نقلتُه من كتاب الكاتب المصري أبي البقاء البدري «نزهة الأنام في محاسن الشام» ، وأحسبُ أن نشرتي لهذا النص هي الأفضل من نوعها حتى الآن ، لسقم الطبعتين القديمتين .

وتابعتُ بنشر أربعة نصوص شديدة النُّدرة عن دمشق ، كتبها رحّالون أوروبيون زاروا دمشق ما بين القرن الرابع عشر والسابع عشر للميلاد ، هم موندفيل ودى لا بروكيير وبولون ومانريك . وفي هذه النصوص نرى تتمّات شيقة ومفيدة ، لما كان يرويه رحّالونا ومؤلفونا من المسلمين .

أما أطرف أقسام هذا الكتاب ، فهي المذكّرات الحيّة الشيّقة ، المليئة بالحركة والحياة والصور المعبّرة عن حياة الشام قبل ردح من الزّمان . فيلمح القارئ في مذكرات جدّة أمي فاطمة البديوي ، لوحة متكاملة لحياة امرأة دمشقية بسيطة ، عاشت حياتها بدمشق هانئة وادعة ، رضيت بحلوها ومرّها ، وشاركت جميع أبنائها بأفراحهم ومصائبهم . وكذلك ، يجد القارئ مزيداً من المتعة في قراءة مذكرات أخرى ، كتبها ورواها الدكتور شاكر الخوري ، وأبي نوري الإيبش .

وأخيراً ، ففي الكتاب نص ممتع وهام عن الحرف الدمشقية ، وتاريخ نقاباتها ، أو ما يُعرف بالمصطلح التاريخي بـ «طوائف الحرف» ، يقدّم لنا مؤلفه فيه فوائد جليلة ، لا عن التراث الحضاري لدمشق فحسب ، وإنما حول لهجتها وتعابيرها العاميّة أيضاً .

وعلى ذلك ، فالكتاب يضمّ طائفة منوّعة من المواد الطريفة والشيّقة والهامة في نفس الوقت عن دمشق ، فبرغم طرافتها وخفّة ظلّ ما بها من مواقف ومعان ، تبقى لها قيمة الوثيقة ، وبوسعنا اعتبارها أشياء من الأصول الحقيقية لعادات وتعابير وأحداث ، بادَت وانقرضت ولم يعد لها أثر حتى في أذهان الناس .

شكر وامتنان

ختاماً ، أرى من واجبي التوجّه بالعرفان والشكر الجزيل ، إلى كل من أسهم بإمدادي بالمعلومات الشفهية أو بالوثائق والصور . أخصُّ بالشكر خالتي الحبيبة زهراء آق بيق ، التي انتهجت معي مسلكاً مفيداً فقالت : «بتجي بتتغدى ، وبحكيلك شو بدّك عن ستّي» ؛ وكذلك خالي العزيز عدنان ، الذي لولا تسجيله لبعض مذكرات جدّته ، لضاع قسم منها كبير ؛ وإلى خالي العزيز نبيل ، لتقديمه صوراً قديمة ، الأمر الذي تكرّم به أيضاً السيد غازي آق بيق .

رجاء ملحّ

لو كانت دمشق ملكاً لأحد ، فإن من حقّه أن يضنّ على سواه بها .

ولكن ، بما أنها حبيبتنا جميعاً ، وأمّنا جميعاً ، وجدّتنا جميعاً ، فلا عذر لمن لا يشارك باقي محبّي دمشق بما لديه من معلومات أو وثائق مفيدة .

وها أنا ذا هنا ، أبثّها دعوة ملحّة ، ورغبة قلبية صادقة ، إلى كل من لديه قصّة أو قُصاصة ورق ، أو حتى كلمة واحدة مهما صغرت . . أن يكاتبنا بها ، ويشاركنا بما لديه ، حتى نتداركها في طبعات أخرى وكتب أخرى .

وهذا - لعمري - أدنى معايير الوفاء للحبيبة دمشق .

وعنواننا البريدي : أحمد إيبش - ص ب : 11252 - دمشق - سورية .

* * * * *

أحلام اليقظة

شرعتُ في الكتابة عن دمشق في عام 1979 - كما أسلفتُ - وكنتُ ما أزال غرّاً يافعاً في السابعة عشرة ، غير أنني تتلمذتُ آنذاك على أيدي أشهر الباحثين في هذا المضمار ، وأدركتُهم جميعاً : الشيخ محمد دهمان والأستاذ خالد معاذ ، عليهما رحمة الله ، والدكتور صلاح الدين المنجّد ، مدّ الله في عمره .

واليوم ، تراودني رغبةٌ ملحّة غامرة ، في أن أتمادى إلى كتابة المزيد عن «الأدب الشعبي الدمشقي» ، من خلال الوثائق المكتوبة والشفاهية التي جمعتُها خلال ما يقارب الربع قرن ، على غرار ما كان فعله مشاهير أرباب هذا الفن بدمشق : ألفة الإدلبي ، سهام ترجمان ، منير كيّال ، ناديا خوست . وبكل هؤلاء الأدباء الكرام تربطني صداقة متينة ، ولهم أكنّ كل احترام .

قال لي صاحبٌ متماجنٌ خبيث ، لمّا أسررتُ بأحلامي :

«إيه منين لوين ؟ مالك بالقصر إلا مبارح العصر ! . . لمّا رَح تعمل متل لمّا إجوا ليحدوا خيل السّلطان ، مدّت البقّة رجلها ؟!» . .

لكنني سوف لن ألقي بالاً إلى تخابث هذا الصاحب الظريف ، بل أعد القرّاء المهتمين بتراث دمشق أن أكمل ما بدأتُه في هذا الكتاب بجزئين تاليين ، بعنوان : «سقى الله هديك الأيام يا شام» ، و «الله يديمك يا شام» .

فإن تمّ ذلك ، بعون الله وتوفيقه ، يكون ردّاً مني لبعض الوفاء ، لحسناء بارعة الجمال أعشقُها ، آسرة في عذوبتها ، جارحة في شفافيتها وبهاء طلّتها . . اسمها الشام ، شآمة الله في أرضه .

دمشق ، 27 أيلول 2002

أحمد إيبش

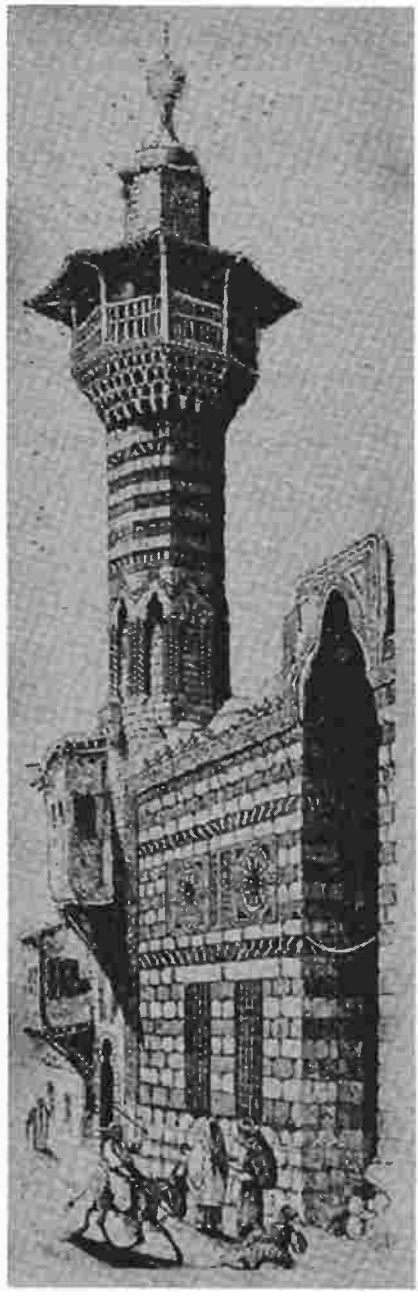

قمـــرٌ دمشـــقيٌّ يُســـافر في دمـــي ... وبلابـــلٌ . . وســـنابلٌ . . وقبـــابُ

الفـــلُّ يبـــدأ مـــن دمشـــقَ بياضَـــهُ ... وبعطرهـــا تتطيَّـــبُ الأطيـــابُ

والمـاءُ يبـدأ مـن دمشـقَ ، فحيثُمـا ... أسندتَ رأسـكَ ، جـدولٌ ينسـابُ

والشِّـــعرُ عُصفـــورٌ يمـــدُّ جناحَـــهُ ... فـوقَ الشـآم . . وشـاعرٌ جـوّابُ

والحـبُّ يبـدأ مـن دمشـقَ ، فأهلُنـا ... عبدوا الجَمالَ . . وذوّبوه . . وذابوا

والخيـلُ تبـدأ مـن دمشـقَ مسـارَها ... وتُشـــدُّ للفتـــح الكبـــير ركـــابُ

والدَّهـرُ يبـدأ مـن دمشـقَ ، وعندهـا ... تبقـى اللُّغـات ، وتُحفـظُ الأنسـابُ

ودمشـقُ تعطـي للعروبـة شـكلها ... وبأرضهـــا ، تتشـــكّلُ الأحقـــابُ

نزار قباني

دمشق ، مشهد عام ، نقيشة من القرن التاسع عشر